ملتقى فلسطين الشعري الأول

وجهاً لوجه مع الاحتلال

تحت رعاية السيد الرئيس ياسر عرفات، وبدعوة من المركز الثقافي الفلسطيني «بيت الشعر»، افتتح مساء يوم الإثنين 2/10/2000م، ملتقى فلسطين الشعري الأول في فلسطين، في قاعة «مركز أريحا للثقافة والفنون»، رغم حصار خانق تمارسه أدوات الاحتلال على المدن الفلسطينية، وتحت زخّات الرصاص الأسود الذي اغتال ثلاثة شهداء من أريحا.. وكان سقوطهم رسالة محبة للضيوف العرب الذين جاؤوا ليكاتفوا أبناء هذا الشعب.

وقد أكدّ «بيت الشعر» أنه يرى في مشاركة المثقفين العرب الفاعلة في الأنشطة والفعاليات التي تنظم على أراضي فلسطين المحررة اختراقاً للحصار ولسياسات العزل الثقافي الذي مارسته سلطات الاحتلال الصهيوني على أرضنا وشعبنا، بهدف عزل المثقف الفلسطيني عن عمقه العربي ومحاصرة هويته وانتمائه العربيين.

كما أعلن «بيت الشعر» أن الصراع مع الاحتلال الصهيوني يأخذ في هذه المرحلة أشكالاً متعددة، لعلّ الثقافة من أهمها وأكثرها عمقاً، وهو صراع يتطلب أولا إعادة تمتين الجسور بين الطليعة الفلسطينية وعمقها العربي عبر كسر طوق العزلة الذي فرضه الاحتلال على فلسطين تاركاً ممرات مشبوهة وتحت شعارات متعددة لعبور مجموعات المطبّعين نحو مناطق تواجده (كما حدث مع وفد الصحافيين الجزائريين، وقبل ذلك مع مجموعة كوبنهاغن) وهو ما يدينه «بيت الشعر» ويرفضه ويتهمه.

ويوضح «البيت» أن تكريس فلسطين كمنطقة اشتباك ثقافي مع الاحتلال الصهيوني ودعم المثقف الفلسطيني في هذه المواجهة عبر المشاركة العربية الفاعلة والمباشرة هي جزء من إدامة الصراع مع الاحتلال وسياساته وأدواته، وهذا ما يسعى إليه «بيت الشعر» عبر تنظيم ملتقى سنوي للشعراء والنقاد

العرب.. كجزء من برنامج متعدد الأنشطة والفعاليات في فلسطين.
وحيا «بيت الشعر» الشعراء والنقاد العرب الذين أعلنوا عن تضامنهم مع فلسطين وشعبها عبر مشاركتهم في هذا الملتقى، مؤكداً أن دوراً حقيقياً وفاعلاً ينتظر المثقف العربي في فلسطين وأن عصراً من المواجهة يتأسس على هذه الأرض.
وصل الضيوف مساء الإثنين إلى «مركز أريحا للثقافة والفنون»، وكانت القاعة متأهبة لاستقبال الضيوف وسماعهم رغم دويّ القذائف والرصاص على بعد أمتار، في هذا الجوّ الانتفاضي، تحول الملتقى إلى «مهرجان التضامن مع الشهداء والقدس الشريف.. ضد كافة أشكال التطبيع عبر جبهة ثقافية عربية موحدة».
الشاعر المتوكل طه الذي أشار إليّ بتغيير برنامج عرافة الحفل قبل صعودي للمنصّة بدقيقة مشيراً عليّ باختزال التقديمات، منح الافتتاح تأهّباً وجدّية لاحظها الضيوف.. بدأ الشاعر المتوكل بقراءة كلمة «بيت الشعر» مرحبا بالضيوف.. وما أن تواصل في القراءة، حتى وصلته ورقة من الجمهور كُتبَ فيها: «سقط الآن على مدخل أريحا الشهيد الثالث». فاضطر لاختصار كلمته محيياً الشهداء الذين هم أَكرم منا جميعاً، ومما قاله في الاستقبال:
بسم الله الرحمن الرحيم:
«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون».
صدق الله العظيم

أهلاً بكم في ساحة الإعدام.. والشرف
أهلاً بكم جميعاً في حضرة السيد الشهيد الذي لم يوارَ بعد، وأمام الدم الذي لن يتخثّر حتى تتمّ بيعتُه كاملةً للحرم، وبين يدي عوج بن عناق الذي نفث روحه في شعبنا فكان من الجبّارين. وأهلاً وسهلاً بكم وأنتم تطأون التراب الحُرَّ المطهر، لتدركوا كيمياء روح الناس الذين يجلّلون الكون بغيومهم الساخنة وصرخات تكبيرهم المذبوح، من رفح إلى أم الفحم، التي تعجن حنّاءها، تحت شبابيك الجزّار.
وأهلاً بكم وأنتم تشهدون المجزرة الألف، وشلالات الضلوع السخيّة، وفجيعة الأب الذي قتلوا ابنه في مغارة حضنه، عسى أن يستيقظ العربُ والمسلمون، أو يتنبه العالمُ ويرى كيف أخذ الوحش المدجج حياة الطفل (محمد جمال الدرّة)، واستلّ براءته بأنياب الثلج السوداء.

أيها الإخوة، أيتها الأخوات،
لقد أكملنا برنامج هذا الملتقى، لنتممّ الندوات والأمسيات في الجامعات والمدن الفلسطينية فنحظى بمشاركة ثقافية نوعية، نفيد منها، وتضيء مداخلاتُ ضيوفنا براري إبداعنا، لكن فصول الجحيم الاحتلالي، تُلقي برياحها المسمومة، على صفحات أيامنا، ليكون محلّ الندوة عيادةً للجرحى، ومكان الأمسية وقفة على شاهد طريّ، وبدل المقابلة تقديمَ العزاء الجليل لثاكل أو يتيم. فهذه هي فلسطين التي تحاول أن تخلع أثواب المهانة والسواد، لكنهم يلبسونها عباءة الدم الطافح.

والحزن أبيض، هذا المساء، ونحن نرحب بكم، أهلاً، في حضرة عمّتنا أريحا، حيث جقّفت حواءُ مشيمتها، فوق صخرتها، عند القرنطُل، وهزّت نخلتها البتولُ المستوحشةُ.. وحرّرها طفلُ الانفجار العبقري، من ليلها المالح، ليُصبْح بَلحُ فلسطين الحُرّ مثل طيور هذا البلد وأحلامه الصعبة.

ويحق لنا، اليوم، وقد أكملنا زينتنا، أن نعلن أنّ في روحنا فسحةً للحداء والشعر وأن شعراء هذا الملتقى، أثبتوا بحضورهم الشجاع، إلى فلسطين، أنهم يقولون ما يفعلون، وأنهم من الذين آمنوا فاخترقوا الحصار وسياسات العزل والعدمية الاستراتيجية وشقّوا ظلمة السياج ليشهدوا أعراس المحمولين على الرايات، فكان وجودُهم هنا، بمثابة فتح مكّة لانهيار اللبْس واللغط، بين أن نتقدم الصفوف لممارسة الوعي مباشرة، وجهاً لوجه، مع الاحتلال، وبين التطبيع وقبول رواية الآخر النقيض، المرفوضة جُملةً وتفصيلاً.

وأرحب بكم جميعاً على أرض فلسطين المحررة، وأرضها المقاومة، وفي هذه المدينة الأقدم على وجه البسيطة، تأكيداً على خصوبة أبدية لا تنتهي، لتراب راسخ يشَهد موت الظلم وانتصار العدل، حيث وجودكم أعطى، لتوّه، قلباً للبحر الميت، مثلما حملت شَواهدُ مقابر الشهداء العرب، في فلسطين، أطفالَ الانتفاضة وأناشيدَ المصير الواحد.

أرحب بكم داخل هذه الأبدية، أبدية المكان وأبدية الرسالة، وأحيي فيكم هذه الريادة للتواصل مع شعب، تم عزله وحصاره طويلاً، لقتل إرادته وتجفيف منابع وجدانه، وقطع جذوره واستلابه.

أحيي فيكم مجيئَكم إلى هذه الأرض المحررة والمقاومة، لتروا بأم أعينكم فانتازيا الحياة هنا، في تداخل الخطوط والخيوط، والحدود والجنود، والخنادق والفنادق. فانتازيا المكان الصغير المزدحم بالاشتعال والدبابات والآمال المتيقظة.

ويشرفنا أن نطلق على هذه الدورة لملتقى فلسطين الشعري الأول، اسم دورة «القدس الشريف»، ريحانة الأرض وبواباتها، ندّاهة الشمس والإشراق، هالة عيسى، قرّة عين السماء، ثوب مريم، عرض أمهاتنا، زيت قناديل الدنيا، فرس القيامة، ماء الروح، نار النارنج، وبرق الجنّة، لا صلاة إلاّ علَى ترابها، ولا حجيج إلاّ لأسوارها، على مصاطبها انداح شريان الحبق، واعتلى الفداء إلى الجلجلة، لتصبح طرق الآلام أعياداً للصغار، وموطناً لنداءات الخبز واليمام.

ونؤكد أن التكاذب السياسي الذي يهرول في هذه المنطقة لن يعدو كونه غثاءً واستلاباً، وأن موقع القدم المنهوب، هو إمّا لنا وإمّا لنا، هكذا كانت وهكذا ستبقى، رغم الاحتلال والإحلال والتهويد وتراجيديا الدم العاصف وصلف إسبارطة القاتل، وطوطم الرعب النووي، واختلال الموازين المنافق.

وأقول؛ إن هذا المشروع العربي الإبداعي لم ولن يكون صيغةً لمصلحة ما أو جسراً لمطمع ما، أو بُنْيَةً لتمرير مقولة ما. أقول إن هذا المشروع الوطني هو رأسُ جسرٍ لتحقيق حلم الأجيال كلها، وقنطرةٌ للعبور، ونافذةٌ للرياح الخالصة.

فهذا المشروع الوطني، لن يتواصل إلا بنسغه العربي ووجدانه العربي وفضائه العربي، وحضوركم الطيب هذا دليلُ هذه الإرادة، وإثباتٌ لهذا التوجّه الحاسم.

هنا، على أرض فلسطين، ستَرون التاريخ يجري بين أيديكم، هنا تستطيعون استنطاق الموجود بما فيه

حقاً، لا بما تريدون سماعه، وبقدر التأويل لهذا المكان، تتكاثر الحكايات والروايات والأحلام والأوهام، إلى درجة يتحوّل فيها هذا المكان، حقاً إلى أسطورة لم تكتب نهايتها بعد، وقدرنا أن يكون هذا المكان من نصيبنا، وقدرنا أن ندافع عنه في أردأ فصول الزمان العربي، المختزن بانفجار مهيب قادم.
تراكم الرداءة المرحلية القاسية يدفعنا إلى الاحتماء بأفياء القصيدة، والقصيدة في فلسطين ليست ككل قصيدة، إنها ليست دفاعاً عن الحق فقط، إنها انتزاع للحق أيضاً، ترى فيها اندفاعَ الرصاصة والحجر والصرخة ومباشرتها وترى فيها أيضاً قلقَ الغزال ورقته الجامحة.
المشهد الشعري هنا متعدد، له ذرى عديدة، ويبحر في فضاءات تتكامل لتشكل كل هذا الثراء وهذا الخصب.. ليليق القول بالمكان، كما يليق الدم بالمقدس.
في فلسطين، يبدو الشعر ضرورة استثنائية، وإذا أَوَّل الآخرون هذا المكان بما يلائم الوهم أو الاختلاق، فهو بالنسبة إلينا رواية متعددة ذات إطار واحد، تتجه ضمن هذا النسق الإنساني إلى غاية نبيلة واحدة، تماماً كقصيدتنا التي تُغنيها ما لا يحصى من الأفواه، وبما لا يحصى من الألحان، لتصنع في النهاية قصيدةً واحدة، هي قصيدتنا الكلية التي تصوغ الممكن فينا والكامن فينا أيضاً.
ليس إلاّ الشعر يتحمل المسؤوليات ويُثقل بالتساؤلات ويردّ على الإجابات. فهذا الشعر يقف على الحافة دائماً: انشطار المكان، تشويه الرواية، الموت الصاعق المتربص على الأبواب، تمرير الممكن من بوابة المستحيل، نسج العلائق الصحيحة في الزمن الصحيح، تجميل ما لا يُعقل، استنطاق الموتى، واستصراخ الأخوة، ونداء الصدر الذي يفتتح غدنا بالرصاص.
إن حضوركم سيمنحنا الفرصة لاشتباك المصطلح وتصحيح الرؤى وضبط البوصلة، وللقول أيضاً بملء الفيه: إن أمتنا بخير، وإن قصيدتنا بخير، وإن ما تبنيه القصيدة لا يمكن أن يُهْدم، وإن ما يزرعه الشعر لا يقتله القيظ أو الصدأ.
شكراً لكم حضوركم الشجاع، شكراً لصدقكم الأكيد، وأهلاً بكم في فلسطين عرباً، نناضل جميعاً من أجل أراض محررة وثقافة عربية ونقدية ضد الاحتواء والهيمنة والاستعلاء والتغريب والموت.
وأهلاً بكم في وطنكم فلسطين، تحطّون مثل غيمة ثرّة مترعة على هذه الأرض.. أهلاً بضيوفنا الكبار، ضيوف فلسطين والقدس، ضيوف ياسر عرفات وضيوف محمود درويش وإخوته الصادقين.

بسم الله الرحمن الرحيم:
«قاتِلُوهم يُعذّبهُمُ اللهُ بأيديكُم وَيُخزِهِم ويَنصُركُم عليهم ويَشفِ صدورَ قَومٍ مؤمنين»
صدق الله العظيم
بعد ذلك، ألقى الروائي يحيى يخلف، وكيل وزارة الثقافة الذي حضر قبل نصف ساعة من الافتتاح رغم الحصار والحواجز التي تضعها سلطات الاحتلال، كلمته التي قال فيها:
«ليس من باب حماسة الخطاب، وليس من باب الانحياز إلى الشعار، وليس من باب إدخال القصيدة في المباشرة والتوثيق، أقول وأقول بثقة واعتزاز: إن الشعر يقف اليوم في خط النار، أجل، اليوم يقف الشعر في خط النار، لا رغبة في إعادة إنتاج الشعار الذي لا يحبذه المجددون، ولا لتحميل الحروف

بدلالات تتنافى مع الحداثة والتطور، ولا لشحن العبارة فوق ما تتحمل الكلمات بل القصيدة تقف اليوم على بعد وردة من القدس، زهرة المدائن عاصمة دولة فلسطين، القدس اسم الوردة». وأضاف يخلف: «تنطلق شرارة هذه الانتفاضة التي تتجدد عاماً بعد عام من رحاب الأقصى، تستبطن جمرة النص البليغ الذي يسكن في قلب الشعب الفلسطيني مثل النار الكامنة في قلب حجارة الصوّان، النص البليغ نص التحرر والاستقلال وإنجاز الحقوق الوطنية وحقوق الإنسان، نصّ الدولة الفلسطينية المستقلة، دولة الديمقراطية، ودولة العشّاق».

أما كلمة الشعراء والنقاد العرب الضيوف، فقد ألقاها الناقد المعروف د. محمد لطفي اليوسفي الذي ارتجل كلمة مؤثرة تحدّث فيها عن لحظات الدخول وعبور الحلم، حيث أشار:

«أود أن أشكر في الحقيقة «بيت الشعر» في فلسطين، بيت العرب، وباسم رفاقي وإخوتي المبدعين العرب الذين يحضرون هذا اللقاء التاريخي، أستطيع أن أقول: إن الشعب الفلسطيني و«بيت الشعر»، أيضاً، أرادا بهذه اللحظة أن يهبانا شرف الحضور، وقد كان من المتوقع أن نحضر فعاليات ندوة شعرية تُلقى فيها القصائد، لكن هذا الشعب العظيم، هذا الشعب الذي ما فتئ ينتقل بنا من الواقع إلى الرمز، أبى إلا أن نعيش الحلم في رمزيته، بحضورنا، حتى وإن عطّلت الفعاليات، فإننا كسبنا شيئاً آخر، وهو الواقع، لقد أعيانا الواقع، وصار مدوّخاً، وأية قراءة عقلية لا يمكن أن تحيط بما يجري عربياً وفلسطينياً. وقتها، يجب علينا أن نحتمي بالرمز، فثمة تجارب بالأشياء مهما كانت قاتمة، هي رمزية، وهذا الجانب الرمزي في الشعر هو الجانب المشرق والمضيء.

فهكذا تلقينا هذه الدعوة، وهكذا تحدّثنا في عمان ونحن نأتي إلى هذا الحلم. وأرجو المعذرة وأنا أرتجل الكلمة. ومع ذلك، فإنني مورّط في الدخول إلى الحلم العظيم. ما كنت أحلم أبداً بالدخول إلى الوطن، كنت شخصياً، والإخوة، تحدثنا أيضاً، أن مجيئنا خطوة في اتجاه الحلم، وهكذا تناقشنا فيه طويلاً، وكنا جالسين ونفكر هل سندخل أم لا؟ أرجو المعذرة إذا خرجت عن الكلمة إلى حكاية الحال التي عشناها، وحكاية حالنا هي حكاية حال هذه الثقافة، وحكاية حال فلسطين بالتحديد.

كنا نفكر بفكرة أننا سندخل أو لا ندخل، ونحرم من هذا التورط في هذا الحلم العاصف المدوي.

أنا شخصياً، اكتشفت أن هذا الطفل العظيم الذي مثل عصفور صغير، احتمى البارحة بجناح والده، لكن الجناح خان مع الأسف، لكنه لم يختر هذه الخيانة. لقد كان رصاص العدو أسبق من هذا الجناح، وكل كتّاب العرب الحاضرين، اتفقوا على أن لا خيار للكاتب العربي إلا أن يكون حارس هذا الحلم العظيم. إننا جئنا فقط لنواصل الحلم في عيون أطفالنا في البلاد العربية، في هذه الفترة التاريخية المهمة.

وأود، أخيراً، أن أعبر عن شكري وامتناني عن هذه الهبة العظيمة التي شرفتمونا بها، وهي أن نصل بهذه اللحظة المتألقة المتوهجة المفتوحة على كل الاحتمالات طبعاً، لكنها شرف عظيم لنا أن ندخل فلسطين، وتكون فلسطين كعادتها في الوعد، وشكراً».

وهكذا تتكسر المسافة بين الحلم والواقع.. والمخيلة تتحول إلى ما هو يومي ومعاش، بعد ذلك، ألقى د. سامي مسلم، مدير عام مكتب السيد الرئيس في أريحا، كلمة السيد الرئيس ياسر عرفات مرحباً بالوفد الضيف، مقدراً هذه الخطى التي عبرت لتشارك الفلسطينية معركة الدم والانتفاضة، ومما قاله:

«أخي المتوكل طه، أخي يحيى يخلف، أيتها الأخوات والإخوة من كل بلدان العرب، أيها الإخوة والأخوات الأحباء من أريحا ومن كل فلسطين، أحييكم باسم الأخ الرئيس القائد الرمز أبو عمار في هذا الملتقى الشعري الأول الذي كنا نريده أن يكون أول ملتقى للشعر في فلسطين، بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية على أرض فلسطين. وها هو الملتقى يتحول إلى مهرجان جماهيري تضامني مع نضال الشعب الفلسطيني، مع نضال الأمة العربية، مع نضال الأمة الإسلامية، مع نضال كل محبي القدس الشريف وفلسطين، من أجل أن يستعيد هذا الشعب حريته واستقلاله وحقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف، بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

نرحب بالشعراء العرب وبالشاعرات العربيات، وأود أن أذكركم أن في تاريخنا العربي، هناك أيام حاسمات اسمها «أيام العرب». وها أنتم تعيشون معنا اليوم يوماً آخر من أيام العرب، يوماً يأتي في ذكرى تحرير صلاح الدين الأيوبي، الناصر صلاح الدين، للقدس الشريف قبل 900 عام. والمناسبة مناسبة رمزية، إن دلّت على شيء، فهي تدلُّ على استمرار القتال منذ أكثر من 900 عام للمحافظة على عروبة بيت المقدس وعلى روحانية بيت المقدس وعلى مركزية بيت المقدس في قلوب العرب والمسلمين، وعلى رأسهم، أو في مركزهم، الشعب الفلسطيني.

نحن اليوم نخوض صراعاً مريراً من أجل الهوية الفلسطينية، من أجل الحق الفلسطيني بالعيش بحرية وكرامة وإنسانية، ومن أجل ألا يموت الأطفال، كما استشهد بالأمس القريب محمد الدرّة، وغيره من الأطفال، الذين لا يجدون مكانا للعب فيه سوى الدفاع عن فلسطين بما أوتوا من قوة.

وقد سقط لنا خلال هذه المواجهات وهذا التصدي، آلاف الشهداء والجرحى، ولكن النضال سيستمر، والإرادة قوية، والعزيمة ماضية، وكما يقول الأخ أبو عمار، هذا هو شعب الجبارين. فهي ساعة الحقيقة لمن لا يريد أن يرى هذه الحقيقة، إن في هذه الأرض قوماً جبارين، لم يركعوا لآلة الحرب الإسرائيلية، ولن يهابوا إرهاب آلة الحرب العسكرية.

إن القصف الجوي من الطائرات والدبابات الإسرائيلية ومختلف الأسلحة لن يخيفنا، وقد عشناها مراراً وتكراراً، وخلال القصف وخلال الحصار للثورة الفلسطينية، استمر شعراء فلسطين وشعراء لبنان وشعراء العرب وكتّابهم ومبدعوهم، من نحّاتين وموسيقيين ورسّامين، ومن أطفال ومن شيوخ ونساء، بالنضال والعمل تحت أقسى الظروف، والاحتفال تحت أقسى الظروف، لأن الإرادة هي إرادة لتحرير الأرض وتحرير الإنسان.

يشرفني أن أعلن باسم الأخ الرئيس ياسر عرفات افتتاح هذا الملتقى، المهرجان التضامني، والله يوفقكم، وسنراكم خلال إقامتكم في وطننا الحبيب فلسطين في كل مدن فلسطين من شمالها في جنين حتى جنوبها في رفح، وشكراً لكم وأهلاً وسهلاً بكم»..

قراءات

بعد ذلك، تقدم الشاعر التونسي، منصف الوهايبي لافتتاح القراءات الشعرية للضيوف قائلاً: لحظة

بلحظة، ويوماً بيوم في ظل القيادة الفلسطينية وعلى رأسها الأخ القائد أبو عمار سأقرأ قصيدة كتبتها أثناء حصار بيروت منذ حوالي 18 عاماً سميتها «الطفل الفلسطيني».

القراءة الثانية ألقاها الشاعر الأردني، جريس سماوي، حيث قرأ قصيدته «هو ذا يولد كالنخيل» مقدّما اليها: «الأخ الصديق المتوكل طه، رئيس بيت الشعر الفلسطيني، الأخ الصديق يحيى يخلف، وكيل وزارة الثقافة، أيتها السيدات، أيها السادة، جئنا بالشعر إلى بيت الشعر لنرى القصائد تكتب بالدم الفلسطيني المضيء، جئت من البلد التوأم، من شقّ الروح الآخر، والناس معبأة بالغضب وبالمحبة وبالحسرة، أيضاً، لكنها، رغم ذلك، معبأة بالأمل، بالأمل أن تحقّق الأمنيات بالدولة، وأن يحقق الحلم الفلسطيني الذي يصاغ الآن بالدم المقدس».

واختتمت الأمسية الشعرية الأولى بقراءة للشاعر الفلسطيني يوسف عبد العزيز المقيم في الأردن، الذي قال: أيها الأحباء، أسعدتم فلسطينياً، اسمحوا لي أن أنحني تحية لهذا الدم الذي يجلّل وجه فلسطين، وقرأ قصيدة «بيت» وقصيدة «بانوراما البيت».

بعد قضاء تلك الليلة في القرية السياحية التي زارها مدير عام مكتب الرئيس بأريحا، د. سامي مسلم للاطمئنان على راحة الضيوف، صباح الثلاثاء، استقلّ الضيوف الباص مغادرين أريحا، مدخل أريحا يعجّ بالإطارات المشتعلة المتبقية من يوم أمس، حيث سقط ثلاثة شهداء. وضع علم فلسطيني على مقدمة الباص الذي يحمل «النمرة» الصفراء.. وسار متجهاً من المعرجات، وصولاً إلى قرية حزما، للوصول إلى فندق (بست إيسترن) برام الله.

مساء الثلاثاء، توجّه الوفد لتناول طعام الغداء في مؤسسة عبد المحسن القطان برام الله، حيث وصل إلى هناك الشاعر صلاح بوسريف، والشاعر زهير أبو شايب والشاعرة وفاء العمراني، التي بكت في لقائها الحميم لقاء الفرحة على أرض فلسطين.

وقد استمع الحضور إلى شرح عن المؤسسة ونشاطاتها من قبل د. فؤاد المغربي، وزياد خلف، ومنسق النشاطات الشاعر محمود أبو هشهش، والشاعر وسيم الكردي، الذين قدموا نشرات المؤسسة وإصداراتها للوفد الضيف.

بعد عودة الوفد إلى الفندق، حضر الشاعر الكبير محمود درويش الذي رحبّ بالضيوف بحرارة وحميمية معرباً عن سروره بقدومهم إلى فلسطين قائلاً: «هذه هي المرة الأولى التي نقول لكم فيها أهلاً» مشيراً إلى أن العرب، دائماً، هم الذين كانوا يرحبون بالفلسطيني، واليوم، بإمكاننا وعلى أرضنا أن نرحب بضيوفنا الأعزاء.

وقد أضفى حضور الشاعر محمود درويش على الجلسة مسحة جمالية رائعة أحيت النقاش والمداخلات التي اكتسبت طابعاً سياسياً، نوعاً ما، وحضر كذلك الشاعر زكريا محمد، والروائي يحيى يخلف، ود. حسين البرغوثي، والشاعر فيصل قرقطي، ووليد أبو بكر، وعزت الغزاوي، وحافظ البرغوثي، ووليد عبد السلام، ووسيم الكردي، ومحمود أبو هشهش، وأنس العيلة، ومهيب البرغوثي.

صباحاً، ذهب الوفد الضيف لعيادة جرحى الانتفاضة في مستشفى رام الله الحكومي حيث ساندوا عائلات الجرحى، ومن ثم توجهوا إلى بنك الدم وتبرعوا بدمهم دعماً للمصابين، بعد ذلك، أعلنوا، ومن

خلال برامج صوت فلسطين (الموجة المفتوحة) وعلى مدى ثلاث ساعات، وقوفهم إلى جانب الشعب الفلسطيني ودعمهم الأكيد للمنتفضين.

كما توجه عدد من الضيوف إلى إذاعة أمواج لإجراء العديد من النقاشات والمقابلات المطولة التي تخلّلها إلقاء غير قصيدة شعرية.

بعد ذلك، توجه الوفد لزيارة المركز الثقافي الفلسطيني –بيت الشعر– للتعرف على المركز حيث حصلوا على جميع إصدارات المركز في إطار التواصل الثقافي والابداعي.

مساء الثلاثاء، توجه الضيوف الشعراء والنقاد لبيوت العزاء في بيتونيا، حيث قدموا العزاء لأسرة الشهيد محمود العمواسي، ثم توجهوا لمخيم الأمعري لتقديم واجب العزاء في مركز شباب الأمعري باستشهاد العناتي، ثم توجهوا للبيرة لتقديم واجب العزاء لأسرة الشهيد الطفل ثائر.

في اليوم التالي، التقى الوفد الضيف السيد الرئيس ياسرعرفات بمقرّ الرئاسة برام الله وألقى الشاعر المتوكل طه كلمة قال فيها: «إن هؤلاء المبدعين الضيوف أبوا إلاّ رؤية الرئيس ليعربوا عن دعمهم الحقيقي في ظل الهجمة الشرسة التي تقودها قوات الاحتلال».

وأشار الرئيس في كلمته الترحيبية بالوفد الضيف إلى ثقته وإيمانه بقدرة هذا الشعب على اجتراح معجزات الصمود والتصدي مشيراً إلى «الغباء الذي بات صفة لشارون الذي اعتقد أن آلته العسكرية بإمكانها النيل من صمود وتحدي شعبنا.. شعب الجبّارين».

وقال: «إن الدرس الذي لقنّه شعبنا لقوات الاحتلال بإمكانه أن يتكرر هنا.. وإن هذا الشعب لن تهزمه الغطرسة والبطش».

ورحب الرئيس بالوفد الضيف مؤكداً دعمه للمثقفين ومباركاً هذه الزيارة للوفد لنقل ما يحدث على أرض الرباط والجهاد، واستماح الرئيس الوفد بعد اللقاء عذراً، لحضور اجتماع القيادة لمناقشة الوضع الحالي في الأراضي الفلسطينية.

وفي المساء، استقبل السيد محمود عباس، أمين سرّ اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الوفد الضيف في مكتبه، موضحاً الموقف السياسي الفلسطيني في ظل التطورات السياسية الحالية ومجيباً على أسئلة الوفد الضيف واستفساراته.

وفي صباح اليوم التالي، توجه الوفد الضيف إلى محافظة بيت لحم للوقوف على معالم الحياة وظروف معيشة مواطني بيت ساحور وبيت لحم وبيت جالا.

قرابة ساعة أو تزيد، عبر درب آلام، سارت الحافلة ليصل الوفد إلى بيت لحم، الذي وصل إلى ساحة كنيسة المهد، تجول هناك، ورأى الأيقونات، حيث الظلال غامضة، ورائحة بخور تشعل روح المكان بجلاله ومهابته، ثم توجه إلى مطلع شارع النجمة الذي يمر به مسار القداس مطلع الاحتفالات المسيحية بعيد الميلاد. شارع النجمة يمنحك إحساساً بما هو قديم ولاصق بالذاكرة، مر الوفد بمحاذاة حارة التراجمة ودرج السالزيان وكنيسة الروم الكاثوليك، ثم شاهد متحف (البدّ)، وهو اسم قديم ويعني معصرة الزيتون القديمة.

وعبّر الوفد عن مدى استهجانه للهجمة الاستيطانية التي تتعرض لها محافظة بيت لحم، حيث صودر

أكثر من 50٪ من أراضيها لصالح أكثر من 27 مستوطنة تشكل سوراً حول المحافظة. وقام أعضاء الوفد بزيارة لمؤسسة بيت لحم 2000 والتقوا الوزير د. نبيل قسيس الذي رحبّ بهم وقدم شرحاً وافياً عن المشاريع التي تم تنفيذها في بيت لحم وأعادت تأهيل المدينة.

وتوجه الوفد إلى مدينة بيت جالا، ورأى الصور الحية لواقع المستوطنات والتعديات الاحتلالية على محيط بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور، حيث توجه الوفد إلى نقاط التماس والمواجهة مع قوات الاحتلال، واطلع مباشرة على واقع الحال المعيشي هناك.

وفي ساعات المساء، ولدى عودته إلى مدينة البيرة حيث يقيم، توجه الوفد إلى معبر المدينة الشمالي الذي يعتبر الأكثر سخونة، ونقطة الاشتباك الطاحنة بين الشبان الفلسطينيين وقوات الاحتلال والقناصة المحتلين الغزاة.

ثم التقوا عدداً كبيراً من كتاب فلسطين وفنانيها وشعرائها، ودار حوار مطوّل ومفصّل تناول المشهد الثقافي في فلسطين والهجمات التي ينبغي أن يبادر لها المثقفون في مواجهة المجازر والاحتلال والموت، معبرين عن تضامنهم ودعمهم مع أبناء الشعب الفلسطيني.

بكائية العمراني

وفاء العمراني، التي اضطرت للمغادرة، بكت بكاء مرّاً لعدم تمكنها من زيارة القدس، حيث شرحنا لها صعوبة الوصول إلى هناك، ولكنها أكدّت نيتها الذهاب مهما كلف الثمن.. وضّحنا لها ضرورة أن تكون في أمان هنا.. بكت طويلاً في غرفتها كطفلة مدللة، كنا على وشك الذهاب إلى بيت لحم، ونحرص على أن ترافقنا.

رفضت الخروج، ذهبت أنا والروائي أحمد رفيق عوض والشاعر زهير أبو شايب لإقناعها.. أحمد رفيق عوض مازحها بجدية المستغرب.. ألم يقل لك أحد إنك جميلة!! أنا أعبر بكلمات بسيطة عن هذا الإعجاب، سرعان ما انفجرت ضاحكة.. مفارقة غريبة.. تضحكني كلما تذكرتها. بهذه الكلمات، خرجت وفاء العمراني عن إطار حزنها ووجعها، وذهبت معنا إلى بيت لحم.

عندما أهدتني ديوانها «فتنة الأقاصي» قبل مغادرتها كان الإهداء (الأخ الشاعر مراد السوداني.. ذكرى لقاء الورد والدم على ضفاف رام الله وحلم القدس الذي لا يؤجل). كلام موجع حقاً يشعرني بالذنب كلما تذكرت تلك اللحظات.

درويش حاضراً

تكررت زيارة الشاعر محمود درويش إلى الفندق، حيث إقامة الوفد الضيف، الجلسات الحميمة التي أسعدت الوفد الضيف والحضور، عموماً.. مفاكهات هنا وهناك.. جدال يقصر أو يطول حول الوضع العام.. مناقشة موضوع قصيدة النثر والقصيدة الغنائية.. كثير من الأسئلة وجهت للشاعر محمود درويش في محاولة لمعرفة رأيه الشخصي، روائيون حاوروا الشاعر محمود درويش وتحدثوا عن شعرية الرواية أو الرواية في الشعر، إن جاز التعبير.. آراء مختلفة ومتنوعة.

الشعراء الشباب، إن صحّت التسمية، كان لهم نصيب في مثل هذه الجلسات، حيث سأل الشاعر أنس العيلة عن موجة من الشعراء الشباب تحاول خلق مساحة خاصة لها على خريطة الشعر.. في محاولة للتجريب والاختلاف.
أنا حاولت توضيح مجاملة بعض النقاد المحليين والعرب لقصائد محمود درويش، حيث قلت: إن درويش لو كتب قصيدة ضعيفة مثلاً، فإن النقاد سيمجدونها، لا يمجدونها لذاتها، بل لأن هناك اسما يذيل هذه القصيدة، ما يمنحها قدرة على الوقوف، عارضني الرأي الشاعر غسان زقطان الذي قدّم مداخلته حول قصيدة النثر. المتوكل طه، وعزت الغزاوي، ومازن سعادة، وآخرون، شاركوا في إغناء مثل هذا النقاش.
إن حضور محمود درويش المتكرر، يؤكد حضور شاعر كبير خدمة للشعر والشأن الشعري.

الصحف.. صوت فلسطين.. وأمواج
إن التقاط صوت فلسطين وإذاعة أمواج، وعلى مدار ثلاث ساعات للوفد الضيف، ساهم، وبشكل كبير، في إتاحة الفرصة للشعراء والنقاد العرب لإبداء آرائهم مما شاهدوه وأثّر فيهم خلال تجوالهم في رام الله والبيرة وبيتونيا، وأريحا، وبيت لحم، وكافة الأماكن التي زاروها.
كما أن استضافة الفضائية الفلسطينية لعدد من الضيوف، وسّع مساحة الحضور لهؤلاء الضيوف.. كما أن حضور الفضائية لفندق (بست إيسترن)، مكان إقامة الوفد الضيف كان له أثر عميق بالاهتمام بالشعراء والنقاد الضيوف أفسح المجال أمامهم لنشر كلماتهم وإسماعها للملتقى الفلسطيني والعربي.
كما أن الصحف الثلاث ساهمت وبشكل فاعل في تغطية فعاليات الملتقى ونشاطاته، خصوصاً أن الملاحق الثقافية لجريدتي الأيام والحياة أفردت مساحات واسعة للملتقى.
الفنان وليد عبد السلام الذي استضاف الشاعر فيصل قرقطي والشعراء الضيوف في مقابلات بإذاعة أمواج، قدم مبادرة تستحق الثناء والتقدير، وحبذا لو انتقلت عدواها إلى محطات محلية أخرى لكان هامش المشاركة أفضل.
كما أن زيارة الفنان وليد إلى الفندق وإحياء أمسياته الوطنية التي تذكرنا بأيام الانتفاضة الأولى، قدمت رسالة لفنان دائم الحضور والعطاء، حيث قدم أغنيته المعروفة »نزلنا ع الشوارع.. ورفعنا الرايات«، وغنى غير أغنية للراحل الشيخ إمام.

التغطية الإعلامية.. عربياً
ثمة تغطية عربية فاعلة وواضحة.. فقد نشرت جريدة الدستور الأردنية وعلى مدار ثلاث حلقات، فعاليات ملتقى فلسطين الشعري، كما نشرت العديد من اللقاءات وانطباعات المشاركين.
جريدة الاتحاد الظبيانية غطت وبشكل لافت، أيضاً، فعاليات الملتقى والبيانات التي تمخضت عنه. كما نشرت صحيفة القدس العربي نشاطات الملتقى وفعاليته والآراء التي قيلت حوله.. كذلك فعلت صحيفة الزمان اللندنية.
«أخبار الأدب» المصرية أشارت في تساؤل: «هل تفسد حرب الفاكسات ملتقى فلسطين الشعري».. حيث

أشارت إلى تلقيها (فاكساً) مجهول المصدر، صيغ بطريقة تتضمن قدراً من الغرابة: «حيث يلتقي شعراء عرب وفلسطينيون وإسرائيليون في مهرجان الشعر الفلسطيني الأول الذي يقام في مدينة رام الله».
وتضمن الفاكس أن اللجنة العليا للمهرجان يرأسها الشاعر محمود درويش!! واختتم بعبارة: «سوف يلتقي الشعراء العرب مع الشعراء الإسرائيليين من أجل الحوار بشكل غير علني».
وأشارت أخبار الأدب إلى أنها اتصلت بعدد من الأسماء التي ورد ذكرها في الفاكس فنفت قائلة إنها لم تتلق دعوة ولا علم لها بالأمر.
«الفاكس» وصل إلى غير صحيفة، والبعض نشره دون التحقق من صحة ما تضمّنه.

صحيفة الحياة اللندنية.. ماذا قالت؟
«لم تنل بعض الإشاعات التي أطلقها بعض المتضررين بـ«ملتقى فلسطين الشعري الأول».. والمهرجان الذي ينظمه «بيت الشعر» في فلسطين تبنى مقاومة التطبيع شعاراً له».
والهدف من الملتقى كسر الحصار الأدبي والثقافي الذي فرض على فلسطين والفلسطينيين طوال أعوام، وهذا ما أكده رئيس «بيت الشعر» الشاعر المتوكل طه.
والشاعر غسان زقطان الذي نشر في باب تداعيات، القدس العربي بتاريخ 22 أيلول 2000 ما يلي:
خلال الأيام القادمة التي تتبع إصدار هذا العدد من «الشعراء»، سينهمك فريق «بيت الشعر» الفلسطيني في وضع الترتيبات النهائية لاستقبال الشعراء والنقاد العرب في أول ملتقى للشعر على الأرض المحررة من فلسطين.
لقد قطع «بيت الشعر» شوطاً طويلاً في الإعداد لهذا الملتقى الذي نأمل أن يكون سنوياً، واخترنا خريف فلسطين زماناً له.
وسيسمح البرنامج الذي أعدته إدارة الملتقى للضيوف العرب بالاطلاع المباشر على مختلف جوانب الحياة الفلسطينية في الشروط الجديدة للصراع مع المحتلّ الإسرائيلي وآثاره واختراقاته التي تراكمت عبر عقود طويلة من الاحتلال والمصادرة.
وغير بعيد عن احتفالات «صيد الساحرات» التي ينظمها عدد من العاملين في الثقافة العربية، أولئك الذين تورطوا في بلاغتهم الميتة.. غير بعيد عن هذا الموت، تدور رحى حرب حقيقية ومتصلة على هذه الأرض.. وفيما «هم» على انهماكهم في إعادة إنتاج موتهم وأشباحهم، تخوض هذه البلاد حربها المقدسة، حقا مع عدو حقيقي يمكن رؤيته ولمسه ومقاومته ودحره عن كل شجرة وبيت ونافذة.
هذا ما نحاول أن نفعله هنا والآن وبكل ما نملك ونستطيع. «الكوميديا السوداء» التي يقترحها علينا «هؤلاء» كانت موجودة دائماً في النص، ولعل ذروتها كانت في تحويل قرار «العودة» إلى فلسطين، ذلك الذي سمح به ممر «أوسلو» الضيّق، إلى خيانة وطنية!!
فيما بعد، يمكن تفكيك الاتهام وإنتاج سلسلة قرارات طالت المؤسسة الثقافية الفلسطينية بمختلف أنشطتها وفعالياتها.. فأكملت بذلك، أو هي حاولت أن تسدّ ثغرات في سياسة الحصار والعزل الثقافي التي مارستها وخططت لها سلطات الاحتلال الإسرائيلي.

ثمة سوء فهم يعيد إنتاج نفسه في بعض زوايا المشهد الثقافي العربي، سوء الفهم الذي سمح بوجود ثغرة كتلك التي عبر منها وفد الصحافيين الجزائريين إلى فلسطين المحتلة.. وإذا أردنا احتساب حسن النية، فإننا سنصل إلى أن مصدر هذا الارتباك هو غياب المعرفة الحقيقية عما يحدث في فلسطين والاكتفاء للحكم على الأشياء والناس والحياة بما وقّره الماضي الشخصي من وعي وإدراك ومعرفة.

إننا نرى في وصول أسماء عربية ذات حضور إلى رام الله ونابلس والخليل وبيت لحم وأريحا وغزة.. مشاركة ضرورية، نحن بأمس الحاجة إليها، في مواجهتنا للطوق الذي يحاول الاحتلال البغيض فرضه على بلادنا التي يتصل تحريرها شبراً.. شبراً بالمعنى الحقيقي للكلام. وهو استمرار لتقاليد رسّخها هؤلاء المبدعون الحقيقيون في إسناد المشروع الوطني الفلسطيني عبر مراحله المتعددة، وهو، أيضاً، وقبل أي شيء، شراكة في معركة القدس المفتوحة على الاحتمالات.

الأمر، بالنسبة إلينا، يتجاوز البحث في نوم الآخرين عن أحلامهم وتفكيكها.. إنه بالضبط نقل أحلامنا، جميعاً، إلى الأرض ومواصلة زراعتها وحمايتها من الاندثار في بلاغة مخادعة لم تعد قادرة على إنتاج شروط حياتها، هو إيجاد تلك المعادلة الصعبة بين اللغة والحياة بين المنبر والخندق، بين القول والممارسة.

لقد منحتنا «معرفتنا» القدرة على تفهم اجتهادات الآخرين، وحتى الاعتذار عن الوصول إلى فلسطين من قبل بعض المبدعين العرب، يمكن لنا أن نجد له سبباً لا يمس حب هؤلاء المبدعين وولاءهم لمشروعهم القومي.

لقد فسدت أمور كثيرة في العقدين الأخيرين، وبدا أن الولاء «للماضي الشخصي» لدى البعض أكثر أهمية بالنسبة لهم، من الولاء لفكرة المقاومة والتحرير.. فسد الكثير من الحمولات، وليس من الحكمة الاستمرار في ترويجها بعد أن انتهت صلاحيتها، أو تركها في صناديق الآخرين وبريدهم.

أما الناقد التونسي د. محمد لطفي اليوسفي، فقد بعث لجريدة الأيام، وبيت الشعر رسالة وشهادة، فيهما نبأ عظيم وخبر يقين وإجابة شافية وهذا نصّ الرسالة:

رسالة مفتوحة إلى «بيت الشعر» في فلسطين

عزيزي المتوكّل، عزيزي غسّان،

إنه لعنت كبير أن يجد المرء نفسه في الخلاء من جديد. فحالما عبرنا الجسر إلى الأردن، تلقفني إحساس عات باللامعنى، لا معنى الوجود خارج فلسطين المجلّلة بالدم المراق، بالرفض والغضب. ثمّة في عيون الناس الذين رأيتهم في أريحا وفي رام الله وفي بيت لحم.. ثمّة في فعالهم وفي إصرارهم الأسطوري على مدّ الوجود العربي بالمعنى، شيء رسولي يكشف كم هو قاس قدر الفلسطينيّ في هذا الليل العربي الذي ما فتئ يزداد كثافة ودياجير، وكم هي مهيبة رسالته، وللأنظمة العربيّة أن تزدهي بفعالها.

رؤساء وحكام، ملوك وسلاطين، استبدّ بهم الفزع حتى غدوا أقنعة للهلع يطلعون على الشاشات والفضائيات مرتبكين مرتعبين من الزلزلة. وتلك مفعولات رسالة الفلسطيني، ذاك طابعها الرسوليّ وبعدها الإشاريّ والرمزيّ.

أطفال يملأون قلب ابنة صهيون الضالّة بالفزع.. شعب بأسره يرتقي على أوجاعه وأحزانه ويحوّل طقس دفن أبنائه المتسابقين إلى الموت إلى فعل مقاومة لا يكلّ ولا يهدأ، أطفال في عمر النرجس يُسْقطون قدّام العالم أقنعة ابنة صهيون الضالّة، فينكشف الجحيم المتكتّم على نفسه في صميم فكرة دولةَ بني إسرائيل، فالفكرة ذاتها مضرّجة بالويلات والشرور والدم المراق.

عزيزي المتوكّل، عزيزي غسّان،
أن يختار طفل موته، أن يمضي شاب لملاقاة دبّابات وعسكر ولا سلاح معه غير جسده وإصراره، فمعنى ذلك أن المقدّس فيه قد تجلّى، ثمّة شيء مدوّخ فعلا، فما رأيناه في بيوت العزاء وفي المستشفيات والشوارع ليس شهادة واستشهادا فحسب، بل هو حدث عبور للحدود الفاصلة بين السماويّ والأرضي، بين ما هو بشريّ وما هو ألوهي.

عزيزي المتوكّل، عزيزي غسّان،
أنا على يقين من أن الحاكم العربي، الحاكم بأمر أمريكا التي ما فتئت تدحرج العالم باتجاه الهاوية حيث لا شيء غير الدمار وصرير الأسنان، لا يمتلك من القدرات العقلية ما يمكّنه من فهم هذا البعد الرسولي المستتر على نفسه في الرفض الفلسطيني، لكنه يمتلك من الغرائز ما يجعله يشعر بالخوف والفزع، ويدرك أن لا أمن ولا راحة. ففي اللحظة التي «استتبّ فيها الأمن»، في اللحظة التي صارت فيها الكرامة العربية مجرّد ذكرى بعيدة، في اللحظة التي أيقن فيها الحاكم بأمر أمريكا أن الجماهير العربيّة غدت مثل الهوام، لا أمل ولا فرح ولا غاية، عاود الغضب الفلسطيني الظهور ليشير إلى الطريق المؤدّية.

عزيزي المتوكّل، عزيزي غسّان،
حين عبرت الجسر إلى الأردن وتلقّفني اللامعنى ضاريا كاسرا، أدركت هذه الحقيقة: إن الذاكرة هبة من السماء، ليست الذاكرة مجرّد إدراك يحفظ الوقائع والوجوه. إنها إدراك مقاوم لسطوة الموت وسلطانه. والنسيان صنو الموت وسميّه وقناعه. علينا ألا ننسى أبدا، ولكم هو عظيم أن يمتلك المرء ذاكرة.

عزيزي المتوكّل، عزيزي غسّان،
لست من الذين يحيطون الكتابة والأدب بهالة من المجد، لست من الذين يتوّهمون أن الكاتب أو الشاعر شخص استثنائي اصطفته السماء أو الأبالسة ليضطلع بدور في التاريخ. فهذه، في رأيي، تصوّرات رومانسيّة مرضيّة.
إنني على يقين من أنني أمارس حرفة الكتابة لأنتشل نفسي من إحساس بالتفاهة، كثيرا ما يتّخذ من الجسد معبرا ويطبق على الروح. لكن المشاركة في ملتقى فلسطين الشعري الأوّل كانت هي طريقي إلى فلسطين، إلى ناسها، إلى احتفائكم بنا واحتفالكم بمقدمنا.

عزيزي المتوكّل، عزيزي غسّان،
لقد أكبرتم مجيئنا إليكم، شعبكم وقياداته وأطره وصحافته احتفت بالحدث واعتبرته فعلا رمزيا مقاوما.
لقد اعتبرتم مجيئنا إلى داركم المسيّجة بالوجع والدم المراق والبطولات فعلا تضامنيّا. لعلّ الأمر هكذا فعلا.
شخصيا، لم أشعر بذلك إلا نادرا، لأنني إنما جئت إلى فلسطين أبحث عن معنى في زمن التباس الطرق وتهاوي المعاني. أنا المنتمي إلى هذا الجيل الذي كلّلت أيامه بالسواد، أنا الذي أتيت ورأيت، أعترف بوجود شيء سحريّ، شيء قدسيّ تسلّل إلى كياني كأنه إشراقة ما، نور ما، كآبة مكثّفة هشّة مشتهاة، سعادة مضنية، فرح معذّب جعلني أعتقد أن زراعة الأمل في عيون أطفالنا ما زالت أمرا ممكنا.
أصافحكما راجيا أن تبلّغوا تحياتي إلى الأصدقاء..

محمد لطفي اليوسفي
تونس – 9 تشرين الأول 2000

ضد التطبيع
غني عن القول إن البيان التأسيسي لـ«بيت الشعر» يؤكد فيه رفض التطبيع مع الاحتلال ورفض رواية الاحتلال عنّا ومقاومته باعتباره محتلاً وقاتلاً، فكيف يكون هذا المهرجان تطبيعياً؟
ويحقّ لنا أن نتساءل: هل فعاليات الملتقى من زيارات المستشفيات والتبرع بالدم، والذهاب لمواقع الاشتباك وبؤر، ومشاهدة لحظات الفعل الفلسطيني ومخاطبة الجماهير من خلال الصحف والمحطات المحلية وصوت فلسطين – الموجة المفتوحة، والفضائية الفلسطينية ومساندة الخطاب الفلسطيني وانتفاضته، هل هذا تطبيع؟ على العكس تماماً، إنه، وكما أشار الشاعر البحريني قاسم حداد: ذهاب لزيارة إخوة لنا في السجن.. فليستمع من له قلب.. أو ألقى السمع وهو شهيد.
وتجدر الإشارة اللافتة التي وضعت على مدخل مركز أريحا للثقافة والفنون وكتب عليها ما يلي:
«ضد كافة أشكال (التطبيع)، من خلال جبهة ثقافية عربية موحدة» أوليس في هذا بيان للناس وعبرة.
أما «بيت الشعر» المغربي، وفي يوم الجمعة 27 تشرين الأول 2000، فقد نشر بياناً تضامنياً مع الانتفاضة و«بيت الشعر» هذا نصّه:
«على إثر الهجمة الاستيطانية الشرسة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني المناضل، وما يتعرض له أطفاله ونساؤه وشبانه من التنكيل والقتل والاضطهاد اليومي، يعلن «بيت الشعر في المغرب» شجبه واستنكاره لما يحدث في الأراضي الفلسطينية، ولما تستعمله الآلة العسكرية الصهيونية من وسائل القتل والدمار لإسكات أصوات الحريّة والاستقلال، ولمواجهة الشعب الفلسطيني الأعزل بأحدث وسائل الحرب والفتك.
وإذ يحيي «بيت الشعر في المغرب» نضالات الشعب الفلسطيني، واستمراره في رفض كل أشكال الاحتواء والمساومة، وإصراره على الذهاب بانتفاضة الأقصى إلى حد تحرير الأراضي الفلسطينية من الهيمنة

والاستيطان وإعلان دولة فلسطين ومدينة القدس عاصمة لها:
– يبادر بتوجيه التحية إلى الإخوة الشعراء في «بيت الشعر» في فلسطين على تنظيم «ملتقى فلسطين الشهري الأول» الذي شكّل فرصة لقاء لتأكيد الانتماء إلى الأرض بالدم والكلمة معاً. رغم الظروف العصيبة التي كانت تعيشها الأراضي الفلسطينية إبان مرحلة اللقاء.
– يؤكد مساندته ودعمه لجميع الشعراء الفلسطينيين الذين كانوا سنداً بالكلمة وبالفعل لقضيتهم العادلة وللشعب الفلسطيني الذي ما زال يواصل كفاحه من أجل الحرية والاستقلال.
– يدعو جميع الشعراء العرب إلى الوقوف إلى جانب شعبنا العربي في فلسطين. ونصرته بما لديه من إمكانيات الدعم. وشجب كل محاولات التطبيع الهادفة إلى فتح جسور اللقاء والمصافحة مع من يفتكون بالأطفال ويسعون إلى إبادة جيل لا يقبل بهدنة الأمر الواقع مصرّاً على أن يكون حرّا في أرضه وفي اختياراته».
فشكراً لبيت الشعر في المغرب لوضعه الأمور في نصابها.
أما البيان الختامي للملتقى، ففيه ردّ واضح وصريح.. فهم رأوا.. وسمعوا.. ولاحظوا في تلك اللحظة التاريخية و«العين أصدق إنباء من السمع».
ويمكن القول إن شهادات الوفد الضيف في الصحافة العربية، خير دليل على صدقية هذا الملتقى.
كل هذا وغيره يدحض كل غبار الأقاويل التي حاولت منع انعقاد هذا الملتقى، وفي انعقاده رسالة واضحة وفاضحة لكل المتخرّصين.
كما التقى الوفد الضيف قبل مغادرتهم بيوم الأخ مروان البرغوثي، حيث وضع الوفد في صورة ما يجري، موضحاً أهمية مساندة الشعراء والنقاد العرب لإخوانهم الفلسطينيين، خصوصاً في هذا الوقت الذي تشتد فيه الهجمة على فلسطين شعباً وقيادة ومقدسات.
وقد رحّب مروان البرغوثي بالوفد الضيف معبّراً عن شكره والحركة لقدومهم الشجاع في مثل هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ قضيتنا.
وقد لاقى حديث البرغوثي تقديراً عالياً من قبل الوفد الضيف لما اتسم به من مصداقية في شرح الأمور وتفصيلها وجرأة في التحليل معبّراً عن روح شعبنا ونضاله البطولي.
وفي اليوم الأخير للملتقى، شكل المشاركون من الكتّاب والشعراء لجنة لصياغة البيان الختامي تكوّنت من: الناقد التونسي محمد لطفي اليوسفي، والشاعر المغربي صلاح بوسريف، والشاعر العُماني سيف الرحبي، والشاعر العراقي هاشم شفيق، وهذا نصّ البيان الختامي:

البيان الختامي للملتقى
انعقد ملتقى فلسطين الشعري الأول (2–8 تشرين الأول 2000) بدعوة من بيت الشعر في فلسطين في ظرف استثنائي يواصل فيه الشعب الفلسطيني معركته الباسلة المجيدة من أجل الأقصى وتحرير الأرض الفلسطينية .
كانت الغاية من هذا الملتقى كسر الحواجز النفسيّة التي حالت دون زيارة المثقفين والكتّاب والشعراء

والفنانين العرب لفلسطين، حتى كادت تعزل الشعب الفلسطيني عن محيطه العربيّ وتكرّس منطق الحصار الذي يستفيد منه العدوّ الصهيوني بالدرجة الأولى.

غير أن هذا الظرف الاستثنائي جعل الملتقى يتحوّل إلى فعل تضامن مع شعب يواجه الآلة العسكرية الصهيونية المدجّجة بالحقد والضغينة وأعتى وسائل القتل والدمار.

وتجلّى التضامن في إنجاز بعض فعاليات الملتقى وزيارة عائلات الشهداء وعيادة الجرحى والتبرّع بالدم والاطلاع العيني المباشر على الظروف القاسية التي يدافع فيها الفلسطيني نيابة عن كل العرب وكل المسلمين عن مقدّسات الأمة وكرامتها.

لقد كان الشعراء والكتّاب المشاركون في الملتقى شهوداً على لحظة تاريخية مضرّجة بالدم الفلسطيني الذي ما فتئ يشهد على تخاذل الأنظمة العربيّة ووحشية العدوّ الصهيوني، ويفتتح الطريق إلى الحريّة وبناء الدولة الفلسطينية المستقلّة.

من هنا ... من أرض فلسطين حيث الصراع صراع وجود، نتوّجه نحن المشاركين في الملتقى بالنداء إلى جميع المثقفين والكتاب والشعراء والفنانين وكل المبدعين العرب، لمدّ جسور التواصل مع أشقائنا في فلسطين إيماناً منّا بأن زيارة الأراضي الفلسطينية المحرّرة من شانها أن تعزّز فعل المقاومة وتسدّ الباب في وجه المطبّعين مع العدوّ الصهيوني.

من هنا ... من أرض فلسطين، أرض الحلم العربي، ننوّه بالجهود التي يبذلها بيت الشعر في فلسطين دفاعاً عن ثقافة الأمة. وندعو إلى استمرار هذا الملتقى الذي يجسّد العلاقة العضوية بين فعل الشعر وفعل المقاومة.

الشعراء والمبدعون المشاركون: محمد لطفي اليوسفي، وصلاح بوسريف، والمنصف الوهايبي، وسيف الرحبي، وهاشم شفيق، ومحمد الجالوس، ونتالي حنظل، ووفاء العمراني، وجريس سماوي، وزهير أبو شايب، وجهاد هديب، ويوسف عبد العزيز، ورسمي أبو علي، وقاسم حداد، وصبحي الحديدي، وفخري صالح، وطاهر رياض.

منــع

وقد منعت سلطات الاحتلال دخول الناقد السوري صبحي الحديدي والشاعر البحريني قاسم حدّاد والناقد الفلسطيني فخري صالح، ما ترك مساحة للحزن بعدم مشاركتهم إخوانهم الفلسطينيين جرح اللحظة ونزيفها، فلهم كل التقدير والتحية.. على أن يكون لقاؤنا على تراب فلسطين وقد تحررت من دنس الغزاة القتلة.

بعد عودة الوفد، توزّعت على خارطة الصحافة العربية العديد من الشهادات عن الملتقى وفعالياته، وما شاهده الوفد على هذه الأرض ونثبت هنا نماذج مما نشر.

مراد السوداني

في القاعة التي شهدت افتتاح المهرجان الشعري في أريحا، وأثناء إلقاء الكلمات والقصائد، تواردت إلينا أنباء الاشتباكات بين الجماهير الفلسطينية وقوات الاحتلال في مدخل المدينة، وعرفنا أن هناك ثلاثة من الشهداء قد سقطوا، كان مساء مضرجاً بالدم، إذن، ذلك المساء الأول الذي قضيناه في الوطن، كنت ألمح التحدي والإصرار في عيون الناس، حين غادرنا المدينة، كانت أشجار «البنسيان» العملاقة تقف على جانبي الطريق بقمصانها الحمراء وتودعنا مثل أمهات حنونات. هتفت لأصدقائي في الحافلة: انظروا، إنها أشجاري الخاصة ذاتها التي أقمت صداقتي معها في حزيران العام 1967.
في اليوم التالي، انطلقنا باتجاه رام الله، واجتزنا مجموعة من الحواجز العسكرية لجنود العدو، مررنا بعدد كبير من القرى الفلسطينية وكنت في كل مرة أنظر بدهشة إلى أولئك الجنود: ترى ما الذي أتى بهم إلى هذه القرى الوادعة؟ إذ لم يكن ليربطهم بالمكان أي رابط، كانوا مدججين بالسلاح والخوذ ومصفّحين بالبزات الواقية من الرصاص. كانوا منتفخين وشبيهين بضفادع ضخمة هبطت للتو من فضاء غامض وجاءت كي تقتل الناس. قال لنا أصدقاؤنا من الشعراء الفلسطينيين الذين يرافقوننا: إنهم يقتلون لأتفه الأسباب، فلا تدخلوا في أي حوار معهم.
حين وصلنا رام الله، كان أول ما لفت انتباهنا مرور جنازة أحد الشهداء، كانت الأعلام الفلسطينية ترتفع في السماء والجموع تهلل وتكبر، إنها أعراس الدم واكتشفنا أن تلك الجنازة لم تكن الجنازة الوحيدة في المدينة، كانت هناك جنازات أخرى حيث هناك المزيد من أولئك الفتيان الجميلين النائمين في التوابيت، لم يكن أحد في المدينة بمنأى عن القتل، الناس هنا كلهم مشاريع شهداء، الأشجار والبيوت، أيضاً.
وبالأمس، شاهدت على شاشة التلفاز مبنى «المقاطعة» الذي قصفته طائرات العدو، كنت قد رأيته في رام الله بكامل أناقته. تلك البيوت الجميلة التي بناها أسلافنا في بدايات القرن الماضي على هيئة أرواحهم، والتي تفننوا فيها، ترى ما علاقتها بابن «بولندا» اليهودي، وماذا فعلت له حين جاء ليقصفها بطائرته؟!
في رام الله، زرنا أحد المستشفيات وشاهدنا جرحى الانتفاضة، ثمة فتية وشبّان كثيرون مصابون بالأعيرة النارية وزع علينا مدير المستشفى إحصائية تشرح طبيعة الحالات: الإصابات كلها في الصدر والرأس، عدا عن ذلك فإن 80٪ من تلك الإصابات كانت لفتية تحت سن الثامنة عشرة.
ما آلمنا هناك وجود «ديبو»، الطفل المنغولي ابن الثالثة عشرة، كان مصاباً بأربع رصاصات. كان «ديبو» يتجول باستمرار في شوارع رام الله، وكان كل من في المدينة يعرفه ويحنو عليه، كان «ديبو» يبكي ويتألم، وحاولنا أن نخفف عنه ونتحدث معه، ولكنه لم يكن ليعرف الكلام، كان يهمهم بعبارات غامضة تجعل القلب يتمزق، ترى لماذا حاولوا قتل «ديبو»؟ أي طراز من القتلة هؤلاء؟! قلت لأصدقائي: إنني أطمح في وجود أعداء نبيلين.. أعداء لهم علاقة ما بالإنسانية. في واقع الأمر، كنّا أمام أعداء تافهين، أعداء ينفذون بدقة وصايا «توراتهم» في أن يقتلوا كل شيء، الناس والأشجار والحيوانات، من أجل أن يتلذذ بهذه الوليمة الكبرى الههم الخاص: رب الجنود.
زرنا عدداً من بيوت الشهداء. في «البيرة»، كان ثمة فتى شهيد في الثانية عشرة من عمره، كانت صوره

رأينا دم المسيح ينز من الحجارة والأشجار

يوسف عبد العزيز

معلقة في المكان، كان يرتدي لباس الكشافة، ذلك الطفل لم يكمل طفولته بعد، أو على وجه الدقة، لم يعشها أصلاً، ربما كان بحاجة إلى ألعاب، إلى دراجة وإلى حلوى حين فاجأه الجندي الصهيوني بالرصاص وقتله.

في «بيتونيا»، كان الشهيد الذي زرنا بيته هناك عريساً لم تمض أربعة أيام على زفافه. استقبلَنا والده وذووه بالترحاب. وحين حاول أحدنا أن يقدم العزاء، قال له الأب: أنا لا أتقبل التعزية، إنني أتقبل التهاني فقط، وأنا فخور باستشهاد ابني.

اتصلت بأخي الذي يقيم في قرية «قطنة» التي لا تبعد عن رام الله أكثر من عشرين كيلو متراً، قال لي إننا في انتظارك، لقد استشهد صلاح الفقيه وشيّعنا جنازته أمس. حاولت الذهاب إلى القرية ولكنني لم أستطع. كان ثمة قتل في كل مكان، كان ثمة شهداء بالعشرات وجرحى بالآلاف.

لقد حول الصهاينة فلسطين إلى ساحة إعدام كبيرة، هناك، أيضاً، سمعنا بأنباء الاشتباكات التي جرت في مدن وقرى فلسطين المحتلة عام 1948. أصبحت الناصرة أختاً لرام الله، فقدت الشهداء ورفعت الأعلام.. يافا اشتعلت هي الأخرى وخرجت لتسد الطريق الساحلي في وجه الصهاينة بعد اثنتين وخمسين سنة من احتلالها.

ذهبنا إلى بيت لحم من طريق «وادي النار»، دخلنا في عدد من القرى المجاورة لمدينة القدس، قلنا لأصدقائنا من الشعراء العرب إن القدس لا تبعد عنا الآن أكثر من كليومتر ونصف الكيلو متر، تحسّر أصدقاؤنا وتحسرنا.

في بيت لحم، تجولنا في الشوارع النظيفة المبلطة وشاهدنا البيوت الجميلة التي بناها الأسلاف. البيوت المقببة ذاتها التي تشبه جسد الأم، دخلنا كنيسة المهد وهبطنا إلى حيث ولد الفدائي الفلسطيني الأول المسيح عليه السلام، كان كل شيء يشي بالرهبة بالروعة واللذاذة في تلك المدينة الصغيرة. كنا نضم

عليها أضلاعنا ونحلم، لولا الموت الذي أيقظنا، ففي بيت جالا القريبة، استشهد اثنان من أبناء الوطن، ودبت الحرائق في كل مكان، ورأينا دم المسيح ينز من الحجارة والأشجار ويجلل وجه المدينة بغيومه الحمراء النوارنية.
انتهى مهرجان الشعر، ولم ينته مهرجان الدم، وقفنا راجعين إلى عمّان. من رام الله إلى أريحا سلكنا الطريق نفسه الذي كنت قد مررت فيه مشياً على الأقدام قبل أربع وثلاثين سنة، إنها طريق «الجفتلك» بعد أن تجاوزنا قرية الطيبة، شاهدت تلك الشجرة الوحيدة التي دون ظل والتي التجأت إليها مع مجموعة من المُهجرّين في تلك الفترة.

أشعر بالخجل لكوني لا أزال حيّا

زهير أبو شايب

دائماً، حين أذهب إلى فلسطين، أصل إلى مكان آخر وراء المكان. الذاهب إلى فلسطين لا يعرف إلى أين تقوده مشاعره، لأنه يتقدم كأنه يطفو ويغوص.. كأنه يوغل في سراديبه وفراديسه المفقودة، هذه المرّة ذهبنا إلى فلسطين.. جديدة أخرى.
مررنا عبر مواجهات، شممنا روائح الدم وعرقا وحرائق، ووجدنا مئات من الجرحى والشهداء في استقبالنا، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتاح فيها لكل من وفاء العمراني وصلاح بوسريف أن يأتيا إلى فلسطين، ومنذ أن لامسا ترابها الذي يختلف مزاجه عن أي تراب، كان أحد الشهداء يعبر شوارع أريحا ملوّحاً بدمه الأخضر يتبعه شجر البنسيان والأعلام والمنازل والآلاف من الشهداء المؤجلين، ثم على الفور انتقلنا إلى المشهد الذي غادره الشهيد قبل قليل عائداً إلى جسده الأبدي، مشهد المواجهات عند طرف المدينة.
في رام الله، التحقنا بالشعراء والكتّاب العرب الذين سبقونا بيوم، وبدأنا ندرك معنى أن يكون المرء هناك، في تلك البلاد التي اختارها بيتاً له، بدأنا ندرك أن الحياة والموت معنيان متصلان لا تناقض بينهما، واستذكرت عبارة نيتشه التي تقول: «إذا أردت أن تجني من الوجود أسمى ما فيه، فعش في خطر».
طلبنا من المتوكل طه أن يرتّب لنا القيام بزيارة الجرحى في مستشفى رام الله وزيارة أسر الشهداء لتقديم العزاء، وحين دخلنا المستشفى، كان أحد الشهداء في استقبالنا، وقفنا خاشعين بمحاذاة الجدار وشعرت شخصياً بالخجل من كوني ما أزال حيّاً أمام هذا الشهيد الأشد حياة مني، والأكثر امتلاء وتوهجاً ومعرفة بالحياة ولذاذاتها.
كان الجرحى يستقبلوننا بزهو لا ندركه تمام الإدراك، لكن أكثر ما أثارنا مشهد «ديبو» الجريح، ذلك

الشاب المنغولي المعاق الذي تعرفه رام الله كلها، والذي لم تستطع إعاقته أن تخرجه من المعنى الفلسطيني.

حين سلمت على «ديبو»، لم يكن يدرك أنه أصبح مناضلاً، لكنه أدرك، ربما، أنني شعرت بنقص أمامه، فعانقني وبكى مستغيثاً بأبيه، كأنما يدافع عن طفولته الأبدية التي لا يمكنه أن يتخلى عنها وكأنما ليذكرني بيتمي.

بعد زيارة الجرحى، ذهبنا إلى بيوت الشهداء، كان شهيدنا الأول طفلاً في الثالثة عشرة من عمره، طلب أبوه منا ألا نعزيه، ولم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء، ظللت أبكي طوال الوقت مستذكراً مشهد اغتيال «محمد الدرة» ومشهد «ديبو» ومشهد شهيد بيتونيا الذي استشهد بعد عرسه بأربعة أيام فقط.

بعد يومين من استشهاد شاب من أقاربي في «دير الغصون»، وكان عليّ أن أغامر بالذهاب إليها رغم ما في الذهاب من مخاطرة، وبالفعل، ذهبت بصحبة عزت الغزاوي، ومحمد حلمي الريشة الذي هبط في نابلس، بينما تابعنا نحن إلى دير الغصون واتجهنا مباشرة إلى بيت الشهيد الذي كان قد جرح مرتين في الأيام القليلة التي سبقت استشهاده، وكان أبوه مناضلاً، فقد ساقه في إحدى العمليات ضد الاحتلال الصهيوني، وكان الحاج وديع فارس غانم ابن عائلتي وبلدي يتفيأ في ظل ابنه الشهيد، كواحد من أبناء ذلك الشعب المجاهد المصرّ على الحياة، وكانت أم الشهيد أردنية الأصل تنذر أبناءها جميعاً لفلسطين التي ناضلت هي وزوجها وأبناؤها في سبيلها منذ أيام شبابها الأولى.

ما الذي يمكن أن يقال إذن في حضرة الشهداء، أشعر فعلاً بالخجل لكوني ما أزال حيّاً، وأتحدث عن موتهم بينما هم يذهبون للدفاع عن حياتي المغطاة بكلام كثير.

انحدرنا باتجاه أريحا، وتأملنا مجموعة من التلال الجرداء الخالية من أي أثر للحياة، كان الصمت سيد المكان، فجأة، برز أمامنا حاجز للجيش الصهيوني، وكالعادة، كانوا مدججين بالحقد والتفاهة، على يميننا انتصبت تلة، هناك جلس جندي صهيوني بكامل أسلحته على كرسي ضئيل، فيما ارتفعت فوقه مظلة لتقيه حرّ الشمس.. كان ثمة فيلم عبثي يجري تصوير مشهده في المكان، وإلا فما الذي أتى بهذا الجندي ليقيم في هذا المكان بالضبط؟ لا بد أنه يترصد ببندقيته النمل الفلسطيني والجنادب التي ستنقض عليه بعد قليل! اجتزنا أريحا فيما نحن نتمزق، فمعظمنا لم يشاهد القدس ولا حيفا ولا يافا.

وكأن تسوية لم تتم

رسمي أبو علي

عندما تندلع الحروب أو الثورات، تتراجع الكلمة وخاصة الكلمة الإبداعية التي لا تستمد قوتها من الراهن المار، حيث تلعب الكلمة الإعلامية صوتاً وصورة دوراً يفوق الكلمة الإبداعية.

هكذا كان إحساسنا، نحن وفد الشعراء العرب ونحن نحزم حقائبنا –وبعض متردد وقلق– استعداداً لمغادرة الفندق في عمّان إلى جسر الملك حسين والذي هو جسر العبور إلى فلسطين الملتهبة بالدم والثورة هذه الأيام.

لكن، ورغم القلق، كان هناك إحساس لدى شعراء الوفد وشاعراته بأنهم يخوضون تجربة نادرة وخاصة الذين يرون فلسطين لأول مرّة، تجربة تنقل فلسطين من جموع المخيلة وفوضاها إلى التعيين والتخصيص، ومن التجريد إلى الواقع دماً وشعباً وأرضاً.. أشجاراً ومباني وأحجاراً، وكم كانت دهشة الشاعر المغربي صلاح بوسريف كبيرة عندما شاهد منظر الفلسطيني العمراني وخاصة في رام الله، إذ هتف قائلاً إنها أجمل من الدار البيضاء حيث يقيم –وكان يعتقد بأن فلسطين ليست إلا مجموعة من القرى ذات البيوت الطينية الصغيرة حيث يدور القتال كل يوم.. أما طاهر رياض الفلسطيني الأصل، الذي يرى فلسطين لأول مرة، أيضا، فقد غلبته المشاعر ولم يستطع أن يعبر إلا بصعوبة بالغة عندما وجد نفسه في المنطقة الملبدة التي هي مزيج من الحلم والكابوس.. من دم وزنابق.

وفاء العمراني –الشاعرة المغربية– الصديقة والأخت والأم، فما كان أسرع دموعها ونحن ندخل بيوت العزاء، واحد لولد لم يتجاوز الثانية عشرة، وآخر لعريس من يومين فقط، أما والد الطفل، فقد رفض تقبل العزاء بالطريقة التقليدية، وقال إن أحمد بطل وإن فلسطين مهرها غال.

وفي الليل، ونحن في الفندق، الحديث كان تبادل إطلاق النار في المواقع القريبة، يذكرني بليالي بيروت، وها هو زمن الجمر الفلسطيني يعود.. أنت تظن أنك خلفت أشياء كثيرة وراءك.. لكن ها هي تبرز أمامك من جديد وبشكل أكثر عنفاً وكأن تسوية لم تتم وكأن زمناً لم يمر.

«قوموا انظروا الدم في الشوارع».. ظللت أردد مقطعاً من شعر لوركا.. أما الشعراء والشاعرات، فقد رأوا وعرفوا وفهموا وهم بعد هذه الزيارة لم يعودوا أبداً كما كانوا قبلها.

وكتب في مكان آخر تحت عنوان:

«الحجر أشد فعلاً»

بدا الأمر أشبه بفخّ في البداية عندما انفجرت الانتفاضة الجديدة قبل يومين فقط على موعد بدء الملتقى الشعري الأول لفلسطين. وكان تأجيل انعقاد الملتقى قد راود نفوس البعض، سواء من المسؤولين عن إعداده أو من الشعراء العرب أنفسهم، إذ كان ثمة قلق من احتمال تعرض الشعراء للأخطار وخصوصاً أن الانتفاضة كانت عنيفة. ولكن، في النهاية، تغلبت مشاعر التضامن والرغبة في رؤية الأحداث على

الطبيعة على أية مخاوف..
معظم الشعراء كانوا يزورون فلسطين للمرة الأولى: صلاح بوسريف والمنصف الوهايبي، أما وفاء العمراني المغربية، فقد تأخرت يوماً واحداً وجاءت في اليوم الثاني والدموع تملأ وجهها تأثراً من كل شيء. وكان معنا صديقنا سيف الرحبي. أما قاسم حدّاد وصبحي الحديدي، فلم تسمح لهما السلطات الإسرائيلية بالدخول، وبقيا ينتظران في الفندق في عمّان بعض الوقت أملاً بالدخول دونما جدوى..
جاءت أيضاً من أمريكا الشاعرة نتالي حنظل، وهي من الجيل الثالث المهاجر، وتكتب الشعر وتتحدث بالإنجليزية ولا تعرف العربية، وأحضرت معها مجموعتها الشعرية التي يمكن أن تترجم «أشعار غير مدجّنة»، ولم تقتصر الدعوة على الشعراء، إذ حضر، أيضاً، الناقد التونسي لطفي اليوسفي والفنان التشكيلي الفلسطيني – الأردني محمد الجالوس..
بقية الشعراء حضروا من عمّان ومعظمهم باستثناء الشاعر الفلسطيني – الأردني طاهر رياض يعرفون فلسطين، وهم زهير أبو شايب ويوسف عبد العزيز وجهاد هديب وكاتب هذه السطور.
وكان واضحاً منذ البداية أن الوقت ليس وقت شعر، خصوصاً أن جميع الشعراء المساهمين هم من شعراء الحداثة الذين لا يجيدون كتابة القصائد المنبرية الطنانة التي يتوقعها المرء في أجواء يخيم عليها شبح الحرب والموت.
كان الجميع يدركون أن الحجر هو أكثر فاعلية من أية قصيدة.. وعلى كل حال، فلم يكن هناك جمهور يستمع، فالأجواء هي أجواء حرب بامتياز، ذكرتني ونحن نسلك طريقاً متعرجاً، قادمين من أريحا إلى رام الله، محاولين تجنب هجمات المستوطنين المفاجئة، ذكرتني تلك الأجواء في بيروت بالحروب كلها..
وأحسست أنني أعود –مرة أخرى– إلى ما مضى، فكأنّ زمناً لم يمرّ وكأن تسوية لم تتم.. غير أن الأجواء كانت أقل خطورة من أيام بيروت، فالمواجهات تتم على محاور معلومة وليست هناك قذائف عشوائية، لكن الشوارع كانت خالية إلاّ من أعداد قليلة..
مع ذلك، قام الشعراء ببعض النشاطات وحضرنا عرضاً مسرحياً أعد بسرعة في مسرح «عشتار» الطليعي المتميز في رام الله.. كما زرنا بيت لحم وكنيسة القيامة وبلدة بيت جالا الوادعة التي ما إن غادرناها، حتى انفجرت مواجهات في مكان ما على أطرافها.. وفي اليوم الرابع، قام الشعراء بجولة على بيوت العزاء المنتشرة في كل مكان..
سيقوم الشعراء والشاعرات بتسجيل انطباعاتهم ذات يوم.. أما أنا، فأحسست أنني أشاهد الشريط نفسه منذ ثلاثين سنة.. لا جديد، فكل الذي يحدث الآن، شاهدته، وربما بصورة أعنف في الماضي.. فهل صار الشعب الفلسطيني سيزيفاً آخر يدحرج جثته وجثة أولاده كل يوم من دون أن يلوح في الأفق أية بادرة لنهاية هذا الصراع الدموي المرير؟